اللغة العربية و الهوية في عصر العولمة

الدكتور نورالدين ثنيو

جامعة الأمير عبد القادر– الجزائر

هذا البحث و أهدافه

اللغة العربية هي محمول تاريخي ووعاء حضاري و وسيلة ثقافية للعرب و المسلمين. كما أنها لغة/خطاب الإسلام الذي يحمل معاني الدين و الدنيا و الآخرة لكل العالم. فإذا كانت اللغة العربية لغة عالمة (savante) عبّرت عن أرقى أشكال الوعي الإنساني، أي عن الإنسان في كافة أبعاده النفسية و الوجدانية و الروحية و العقلية ، فضلا عن حاجاته المادية و الإجتماعية، فان اللغة العربية هي أيضا لغة كونية عبَّرت و لا تزال تُعَبِّر عن الكون في كافة مستوياته و تجلياته، و أقوى ما تتجاوب مع عصر العولمة الذي صار يكشف عن حروف و كلمات و حقائق القرآن الكريم، لغة السموات و الأرض و الآخرة.

اللغة العربية وعاء حضاري، ثقافي، روحي و ديني حامل للهوية العربية باعتبارها وسيلة للتخاطب و الإبداع و الخلق و الصناعة أيضا.و لأنها كذلك، تستطيع أن تدرك معاني العصر في أرقى مراحله و تطوراته أي في عصر العولمة. و العولمة ،كما نتعامل معها، هي سياق تاريخي سريع و معقد يفصح لمن له القدرة على القراءة و الإصغاء، عن المعاني المستورة في الكتاب المنشور (حقائق الكون و روائعه) في ضوء الكتاب المقروء و آياته. و أبرز ما تظهر هذه العلاقة في عصر العولمة، لأن هذا العصر فائق الإبداع و الخلق و الكشف، يمنح قدرة عجيبة لإدراك المعاني و أصول الكلمات و مشتقاتها في ثقافات و لغات و حضارات الأمم و الشعوب المختلفة على تنوع عطاءاتها و انجازاتها. فما من نص إلا و سبقه نص آخر و يُرَدُّ إليه، لكي ننتهي إلى حالة من التَّنَاص العام التي لا تخلو منه حضارة من حضارات العالم.

اللغة العربية هي اللسان الواضح، الذي تحدث عن عالم الغيب و الشهادة، و عن الكون و أجواءه و عن الآخرة و مشاهدها. و على إنسان العصر المعَوْلَم أن يدرك معانيها و يفصح عن مدلولاتها و مكنوناتها في سياق التوجه العام نحو المطلق. إن اللسان العربي المبين هو بيان حال العالم و الإنسان من الأزل إلى الأبد، و أبرز ما تظهر هذه الحالة في عصر العولمة على ما نشهد من كشف متلاحق و فوري للكلمات و الأشياء، علاوة على لغة القرآن المبين الموجهة إلى الإنسان حيثما كان، تتجاوب أكثر مع عصر" العالم كله " في لحظة فورية واحدة.

اللغة العربية وعاء لتراث العرب و المسلمين، ومن ثم فهي هوية يعرف العرب بها و يتعرفون من خلالها على أنفسهم ، و تمثل مقوّمهم الركين في عالم صار يزخر باللغات و الثقافات. و نعالج الموضوع في النقاط التالية: اللغة العربية في عصر الهويات المفتوحة – اللغة السياسية و المدنية .. لاستكمال الهوية العربية – اللغة العربية و مسألة الحداثة – الفجوة الحضارية بين العرب و الغرب ...أو التفاوت في المصطلح الحديث.

اللغة العربية في عصر الهُوِيَّات المفتوحة

نعيش في عصر الهويات المفتوحة التي لا تكتفي فقط بذاتها بقدر ما تبحث عن الآخر كأفضل سبيل لاكتمال و انسجام الهوية مع العصر و متطلباته و تلافيا للمآزق و الأزمات و المفارقات الثقافية و الحضارية. فإذا كانت اللغة العربية، لغة حية مثلها مثل سائر اللغات الحية في العالم، فإنها مدعوة دائما إلى التجدد، ومن ثم تجديد الهوية ذاتها للصلة القوية بين اللغة و الملامح القاعدية للذات الإنسانية. فلا نضيف جديدا، إذا قلنا أن اللغة هي الوعاء و الحامل لهوية القوم أو الجنس الذي يتكلم بها. و هذا صحيح إلى حد كبير و يصدق على اللغة العربية و قدرتها على تشكيل و الحفاظ على الهوية العربية. لكن اللغة لا تكف عن التطور و النماء المتواصل مع معطيات الكون و الدنيا، و عن التطلع إلى المستقبل لاستيعاب مفرداته و كلماته و جمله المفيدة كأفضل سبيل إلى السيطرة على الأشياء المادية و المعنوية.

و عليه، فان اللغة العربية، بما تمتلك من قدرة ذاتية، إنْ على مستوى البنية أو الامتداد على مستوى الدين و الدنيا و الآخرة، فيجب عليها أن لا تتوقف عن البحث في الهوية و عنها أيضا، لأن البحث عن الهوية، في جزء كبير منه متأتي من وحي وجود الهوية ذاتها. بمعنى أن البحث عن الهوية و محاولة الوجود و الانسجام معها، لا يعني بحال غياب الهوية، لأن الدافع إلى البحث المتواصل عنها جاء بدافع ديمومة وجودها المتطلع إلى الكمال و الانسجام مع معطيات و مقتضيات العصر في آخر مراحله. لا مشاحة إذن، في أن تطرح مسألة اللغة العربية و الهوية ضمن إشكالية العصر : الهوية العربية مع / في مواجهة الآخر كأفضل سبيل للوقوف على الهوية المتجددة، القادرة على استيعاب الجديد دونما تنكر للتراث و الأصيل، لا بل الكل يتماشى في لحظة آنية و فورية تعبِّر عن العصر في آخر مراحله الفائقة. فقد صار الآخر، طرفا مهمًا في بلورة الأنا، الذات أو الهوية كأفضل سبيل لتجاوز الاستلاب و الإغتراب و المسخ، إذا لم نقل الاندثار و الانمحاء.

مع تجدد اللغة تتجدد الهوية، و العكس صحيح أيضا، فمع إدراك قيمة الهوية يزيد الاهتمام باللغة، حيث يتم في ذات اللحظة السعي إلى امتلاك المفردات و الصيّغ الجديدة لتجديد التعامل مع اللغة في صلتها بالهوية، أي التقدم

على صعيد العلم و المعرفة و الشعور بمسئوليتنا عن مصير العالم و الناس الذين يعيشون فيه. فالحديث عن اللغة في صلتها بالهوية، كما نبحثها في العالم العربي، حديث أثير لأنها تحثنا على واجب التقدم و التطور و النماء على مختلف الصُّعُد و المستويات، كأفضل سبيل لامتلاك انسجام و حصانة الإنسان العربي و مجتمعه، و من ثم زيادة رصيده الثقافي و عدّته الحضارية بحيث لا يخشى إطلاقا التماهي و التلاشي و الاضمحلال. فكل تعامل مع الجديد و مع الآخر هو إضافة جديدة إلى الذات أو ما يعرف بالشخصية القاعدية التي يصهرها التاريخ و الجغرافيا والتي تحدد، في نهاية التحليل، الإنسان العربي على أنه عربي، أي أنه يعرف نفسه من خلال اللغة، و يتعرف عليه الغير كونه يتحدث العربية ويعبر بها عن رأيه في النقاش العالمي. إن أخذ الكلمة، في سياق العصر الفائق، ليعرب الإنسان عن رأيه، في ذات الوقت يحكم عليه الآخرون أيضا بأنه عربي .

و هكذا، فان الحديث عن الهوية العربية في صلتها باللغة العربية، هو حديث برسم الاكتمال و السعي إلى ملء النقص في البنية التي لا تكف عن عملية البناء و إعادة البناء [1]. فقد سبقت الإشارة إلى أنه يستحيل البحث عن الهوية في غيابها، بل البحث عنها هو عنوان كبير على وعي قومي يرنو إلى الانسجام و الكمال، و الهوية العربية من هذه الناحية هي مشروع مفتوح آيل إلى الالتقاء بعناصر الذات مع معطيات الكون و العالم[2]. ما تعاني منه الهوية العربية هو عدم امتلاكها لروح الحداثة في كافة تجلياتها و مظاهرها، و غابت بسبب ذلك قضايا العصر الكبرى عن وعي الإنسان العربي و مسئولية الدول العربية عن مصير العالم ، أي نصيب العرب في الحفاظ على سلامة الوجود الإنساني و تطوره، على ما تصنع الدول الكبرى التي تشعر بأنها مسئولة عن العالم و مصيره، و تسخِّر كافة الإمكانات المادية و المعنوية من أجل مواجهة التحديات و الرهانات التي تلازم و ترافق العلاقات الدولية، و مخلَّفات العلم و التكنولوجيا. و بتعبير آخر يهم العرب، أن يرتقي الإنسان العربي بهويته إلى مرتبة التعلق بمصير الإنسانية،

---

[1] أنظر ، محمد عابد الجابري، وجهة نظر .. نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1992.

[2] انظر في هذا الصدد كتاب الروائي و الكاتب اللبناني أمين معلوف: الهويات القاتلة . الهويات تصبح قاتلة عندما لا تأخذ بالمعطيات و النوازل الجديدة على ما شهد العرب في حياتهم الحديثة و المعاصرة. Amine Maalouf, les identités meurtrières, Grasset, Paris, 1998

كما توحي به نصوص الخطاب القرآني، من أجل أن يتسنى له العيش في لحظة انسجام اللغة مع الهوية[3] التي لا تكف عن الانفتاح على الغير و الآخر، بعدما صارت الغيرية جزءا مهمًا في بناء و تكوين الذات.

اللغة السياسية و المدنية .. لاستكمال الهوية العربية

اللغة السياسية هي لغة إدارة الشأن العام و تدبير الإختلاف و تسيير نظام الحكم، كما أن اللغة المدنية هي لغة تعكس ثقافة المدينة الحديثة بكل أجوائها و عبقها و روحها، يشعر فيها المواطن بالانتماء إليها انتماء وجودي، تحدد هويته في نهاية المطاف، و لا يمكنه الاستغناء عنها، حتى ولو كان بعيدا عنها. لا ريب أن اللغة، أي لغة في العالم، على صلة متينة بالسياسة كفكر و ممارسة، عندما تعني إدارة الحكم من قبل السلطة الشرعية، و نقد الحكم من قبل المعارضة، تفاديا لاحتكار معاني الكلمات و دلالتها في رحم السلطة الحاكمة فقط. فكلما كان نظام الحكم/ السلطة/ الدولة العربية على قدر كبير من الفعلية و الحَكَامَة (الحكم الراشد)، كلما زادت إمكانية استخدام اللغة العربية في قضايا حقيقية و مصيرية تساعد على تقليص الأمية السياسية و احترام أكثر للمدينة كفضاء عام يستدعي لغة المال العام التي تتحدث بخطاب غير استحواذي ولا احتكاري على اعتبار أن المال العام هو ملك الجميع كما يقال.. لكن ما ينقصنا كعرب في هذا الجانب هو امتلاك ناصية اللغة التي تعكس الوعي بقيمة و أهمية المجال العام و المؤسسة العامة كأفضل سبيل لاستكمال الهوية العربية الناقصة.

اللغة العربية تحتاج إلى اللغة السياسية الحديثة إن على صعيد النظرية السياسية أو على صعيد التجربة و الممارسة السياسية أيضا لقوة الصلة و العلاقة البينية التي صارت عليها المنظومات الفكرية و العلمية في عالمنا الفائق. و عليه فان التحدي الكبير الذي يواجه العرب ليس ما آلت إليها اللغة العربية كلغة تواصل و قِوَام هوية، بقدر ما يتمثل هذا التحدي الخطير في قلة تَبَصُّر النظام السياسي العربي في مسألة اللغة العربية و صلتها بالسياسة عندما تعني أن كل شيء هو السياسة و أن السياسة هي أيضا كل شيء، بمعنى ما من مجال من مجالات الحياة إلا و يحتاج إلى تدبير سياسي: السياسة الاقتصادية، السياسة الثقافية، السياسة البيئية، السياسة الاجتماعية، السياسة الدولية... فالقصور في تغطية هذه السياسة في مدلولها الواسع هو الذي ينعكس عند التحليل الأخير على اللغة و يحيلها إلى الانكماش و الاضمحلال. ومن الأمثلة في التدبير الناجح للغة العربية هي اللغة المتداولة في بعض الفضائيات العربية عندما هيئت اللغة و أعدت برسم التداول العربي القومي و من أجل كل العرب في سائر أنحاء العالم، فوظفت اللغة

---

[3] حول صلة اللغة العربية بالهوية و الأسئلة التي تثار حولها، يمكن العودة إلى الكتاب /الندوة: اللغة العربية، أسئلة التطور الذاتي و المستقبل، مجموعة من الباحثين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005.

ليس لترديد مناقب أنظمة الحكم العربية أو لشرح البيانات و القرارات التي تصدر عنها بلغة متخشبة و مترهلة من فرط تداولها حتى النفاد الأخير. فقد فُتِح المجال للّغة العربية للتداول العام، يخاطب بها الشعب العربي كوحدة قومية تزيد من متانة الهوية العربية التي تفلت من أنظمة الحكم القُطْرية و الاحتكارية. و لعّل النجاح البارز في تداول اللغة العربية في الفضائيات هو أنها استدعت سياسة جديدة: زيادة الاهتمام الدولي بالشأن العربي و لو بإحداث قنوات فضائية تتحدث بلغات عالمية أخرى.

حول صلة اللغة العربية بالقومية العربية الحديثة، يمكن القول أن اللغة العربية طُلِبَت لمحاولة توكيد نزعة إيديولوجية برسم الاستقلال عن الدولة العثمانية، ثم عن الإستعمار و النزعات الإقليمية. فقد كان المطلوب هو القومية العربية و ليس اللغة العربية كوجود ذاتي تستطيع أن تنجز متطلبات العصر الحديث و المعاصر. فتوكؤ النزعة القومية على عامل اللغة العربية هو اقرب إلى الاستنجاد السياسي بها للاستقلال عن الدولة العثمانية، و لم تكن عن مقصد معرفي، طغت عليه ايديويوجيا بدل إبستومولوجيا اللغة كعامل حيوي لإزدهار الشخصية العربية في كل مكوناتها الدينية و الإجتماعية و التاريخية و تطلعاتها المستقبلية، خاصة على مستوى طريقة التعامل مع العالم و تنوعه الحضاري و الثقافي، حيث اخْتُزِلت اللغة العربية إلى بعدٍ واحدٍ هو قومية السلطة السياسية، استغلتها الأحزاب و التنظيمات السياسية ذات التوجه القومي، التي كانت في حقيقة الأمر توجهات إقليمية، لأنها كانت تدعو و تروّج إلى الدولة الإقليمية. فقد أفضت النزعة القومية إلى نوع من الانكفاء على الذات العربية و استغلالها ليس ضدا على من ليسوا عربا بل ضد العرب أنفسهم [4] عندما تشكلت الأحزاب القومية و البعثية و العروبية ضدا على بعضها البعض كشفت في نهاية التحليل عن سوء استخدام اللغة العربية كلغة تداول و سيمياء للعالم العربي و الإسلامي و الدولي، عندما راحت كل دولة عربية إلى احتكار اللغة العربية و تضمينها البيانات السياسية التي تصدر عن الأحزاب و الحكومات العربية التي تؤبد الحاكم و السلطة و لو ضدا على منطق الدولة المدنية الحديثة.

و الحقيقة، كما يشهد على ذلك تاريخ الحضارة العربية، أن التوكيد الحصري على اللغة العربية في تثبيت الذات و الهوية على ما يرى القوميون العرب طوال القرن العشرين تقريبا، فيه افتئات على قوة وفاعلية اللغة العربية التي لم تتحدد في منطلقها و خاصيتها على إقليم جغرافي محدد، بل هي دائما برسم الانفتاح سواء بالدين أو الحضارة أو معاني الكلمات. فقد واصلت اللغة العربية امداد المراكز الحضارية التي جاءت بعد حضارة العرب بالمعاني و الدلالات و الحكمة و الأثر البالغ في إعادة تشكيل قوميات و مجتمعات جديدة شكّلت اللغة العربية قوامها الجوهري إن على

---

4 نورالدين ثنيو، الهوية العربية تواجه ذاتها، مجلة الديمقراطية، ع.12، أكتوبر 2003، مؤسسة الأهرام، القاهرة.

صعيد فهم و إدراك رسالة الدين الإسلامي و استيعاب الانجازات العلمية و الفكرية المتوارثة عن حضارة العرب في عهدها الكلاسيكي، كما حدث مثلا للحضارات العثمانية، و الفارسية و الأردية و العديد من المناطق الأسيوية و الإفريقية، فضلا على فضل العربية على النهضة الأوروبية الحديثة.

و عليه، فقد توقفت اللغة العربية في المثال العربي عن العطاء الريادي، لكنها تواصلت مع بقية الحضارات التي جاءت في أعقاب حضارة العرب الكلاسيكية، و استفادت من دلالات و معاني الوضوح و الأمر البين كما جاء في رسالة القرآن الكريم، كشفت في نهاية التحليل و المطاف عالمية الرسالة و تأبِّيها عن الانكفاء أو الدعوة القومية الحادة التي ترمي إلى الاستغلال لخاصية الوضوح للغة العربية. و اليوم، ليس هناك إطلاقا ما يحول بين العرب و إمكانية استعادة امتلاك خاصية الوضوح في اللغة العربية لإدراكها و استيعابها عبر التداول العام و الإبداع و الخلق في كافة المجالات و الحقول العلمية الفنية، الإعلامية، التكنولوجية و إعادة إصلاح الخطاب الديني و السياسي وفق إيقاع العصر الفائق و وتيرة العولمة التي تقتضي انفتاح المشاريع و البرامج و الخطط و حتى الدعوات إلى ما هو عالمي و إنساني.

إن التعويل الحصري على اللغة العربية من قبل القوميين العرب، كما سبقت الإشارة، كان في موضع الاستنجاد بها و ليس للإبداع و الإنتاج المعرفي و الثقافي، بل كان التعويل على اللغة محمَّلا بالبطانة السياسية الظرفية للخروج في البداية من الأسر العثماني، ثم صارت بعد ذلك تعاند في توظيف اللغة في تمجيد الدولة و الحزب و القائد، و علّقت كل شيء على السلطة ، و لم تراع التَّنوع و الاختلاف و الكثرة التي تزخر بها المجتمعات و الشعوب العربية.و هكذا، فقد خلفت مزاحمة السياسة للغة و استغلالها إلى النيل من عبقرية اللغة العربية في لحظتها الحديثة، عندما تم مضايقتها و حشوها بمفردات و كلمات مبهمة و ملتبسة، يصعب استيعابها بتلقائية و يسر، نشير إلى تعريب المفردة الأجنبية بأكثر من معنى أو ما دون المعني أو إلى معنى خاطئ أصلاً، فضلا على الأثر السلبي التي تركته الحروب العربية العربية، و الخلافات السياسية و المماحكات و السجالات بين الأنظمة العربية الحديثة التي قلمّا امتلأت أجهزتها بقيم و مبادئ و طرق تسيير الشأن العام و الدولة المدنية على أسس من التناوب و الديمقراطية.

تعامل القوميون العرب مع اللغة العربية كهوية حصرية لهم، و هذا ما أدّى إلى الافتئات على قوة و قدرات و مكامن اللغة العربية في عصرها الحديث، الذي يجب أن تنفتح عليه، الأمر الذي أفرز ظاهرة الأدب العربي في المهجر خارج البلاد العربية التي سادت فيها أحدية السلطة و الحكم، على امتداد التاريخ العربي الحديث و المعاصر، فضلا على رصيد اللغة العربية في المجال العلمي و المعرفي الذي قدّمته الجامعات الأجنبية في العالم العربي.

اللغة العربية لغة تأبى المحلية، و تَندُّ عن القبيلة و العشيرة و القطر، بل تطلعت و لا زالت إلى ما هو واضح و بيّن في كل بقاع العالم لتتجاوب مع رسالة القرآن الكريم الذي انفتحت معانيه على آفاق الدنيا و التاريخ و الآخرة، و استمرت دلالات آياته حتى مع أجناس من غير الجنس العربي، و في هذا المعنى يرى الشيخ صبحي صالح " اللغة العربية، ليست فرعا من اللغات الإنسانية، فهي جميعا تتبادل التأثير والتأثر. و هي جميعا تُقْرِض غيرها و تَقْتَرض منه متى تجاورت أو أتصل بعضها ببعض على أي وجه، و بأي سبب و لأية غاية... و لم يكن ما أدخلته (العربية) من الألفاظ الأجنبية قليلا، لأنها عربت منه الكثير قبل الإسلام، حتى رأيناه في لغة الشعر الجاهلي و قرأناه في سور القرآن و استخرجناه من بعض الحديث النبوي، ثم عرّبت منه الكثير بعد الإسلام"[5]. و من هنا، فالتحدي الداهم للغة العربية، بناء على ما تقدّم، هو في المأزق العربي الراهن الذي يظهر تعدُّد أنظمة حكم عربية تتعامل مع لغة عربية واحدة. و الدعوة هنا ليس إلى تعدد استخدام اللغة العربية إلى توحيد النظام السياسي لتتحرر تبعا لذلك اللغة العربية. و للتوضيح أكثر، نقول أن نظام عربي لا يتصرف مع اللغة العربية بنفس ما يتصرف به نظام عربي آخر.. و من هنا وجه الإرباك و اللبس في استخدام الكلمات و ما تحمله من شحنة و حمولة إيديولوجية و سياسة وطنية ظرفية[6]. ففي الوقت الذي تستقل اللغة العربية عن النظام السياسي العربي المتخلِّف، تزدهر الكلمات و مفردات القاموس العربي و يتسع دورها و وظيفتها لتعبر عن الإنسان بصيغة الجمع و الفرد، و عن المجتمع كأمة من الأفراد مواطنين لدولة قوام وجودها الأفراد ذاتهم. و يوضح هذه الحقيقة الشيخ محمد المبارك على النحو التالي:" إن اللغة حادثة اجتماعية... اللغة متصلة بحياة شعب من الشعوب تنتقل معه في الآفاق المادية و المعنوية، ترسم فيها صور بيئته الخصبة أو الوعرة.. و تنعزل معه إذا هو انعزل، و تختلط بغيرها إذا هو اختلط بغيره من الشعوب، ثم هي ترافقه

---

[5] صبحي صالح، دراسات في فقه اللغة، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، 1962، ص.366-367.

[6] نأخذ على سبيل المثال النظام العربي الليبي كما حاول أن يجسده معمر القذافي، و نشير إلى دور اللغة في انهيار حكمه. فقد عمد منذ بداية عهده بالحكم إلى تغيير المصطلحات المتداولة في المجال السياسي والاقتصادي و الاجتماعي و حتى في الدبلوماسية الدولية، و نظّر للمسألة الديمقراطية و الاقتصادية و الاجتماعية في وثيقة أيديولوجية أطلق عليها "الكتاب الأخضر"، الذي أراده كنظرية عالمية ثالثة يتجاوز بها النظرية الرأسمالية و النظرية الاشتراكية، من دون أن يشير إلى الخلفية التاريخية و الفكرية التي تستند إليها النظرية الثالثة في مجتمع ليبي متخلف متوارث عن لحظة انهيار الحضارة العربية لعصرها الذهبي. لكن وجه السقوط و انهيار نظام القذافي جاء من إخفاقه في ترسيخ مفردات كتاب الأخضر و ممارسته السياسية، التي تبين في نهاية المطاف أنه أراد من خلال قاموسه الفاشل أن يغطي على المعاني الواضحة و البيّنة في مفاهيم الفكر السياسي الحديث و المعاصر، ثم أن ثورة الشعب اللبي ضد الزعيم القذّافي تمثلت في قدرة الشعب على احتفاظه بمعاني الكلمات و المفاهيم المتداولة في العالم و لم تتمكن منه مصطلحات خطاب الكتاب الأخضر التي فقدت وهجها و بريقها الأول مع بداية الانقلاب عام 1969، لمّا تسلم الحكم. و هكذا، انهار النظام الليبي بسبب غياب النظام السياسي ذاته، لأن ما حاوله الزعيم القذّافي هو استمرار للغة الانقلاب في عصر مفارق تماما لها، الأمر الذي صار يعني الفوضى الواضحة.

في آفاق حياته الفكرية، فتنخفض فلا تسجل إلا الحسيات، و تُحَلِّق إذا حلّق الشعب في آفاق التفكير العلمي و الفلسفي"[7].

إن التعامل مع الوضع السياسي و المدني على أساس أنه جزء من الهوية أو أنه يساعد على ذلك، يوفر فرصا أكثر لكافة أفراد الشعب لكي تعبر و تبدع و تخلق و تصنع ليس فقط في مجال الأدب و الفكر و الفن و الرياضة و التجارة، بل تساعد على بلورة و تداول لغة عربية واضحة بين أفراد الشعب العربي في ما بينه، و بينه و بقية العالم، لأن اللغة العربية المتداولة في هذه الحالة تستبطن كافة القضايا العالمية و الإنسانية، يظهر فيها العرب قدرة على إبداء وجهات نظرهم. و لعلنا لا نجانب الحقيقة إذا قلنا أن أقوى بلدان العالم هي تلك التي تنتج المصطلح السياسي و المدني لما يوفرها نظامها الحاكم من ديمقراطية و ما توفِّره مدنها من فضاءات و مجالات عامة توحي بالراحة و الاطمئنان يشعر أفرادها بهويتهم الكاملة. و على خلاف ذلك، نجد حالة التسلط و الاستبداد و ضيق المجال السياسي في العالم العربي أثره البالغ في محاصرة اللغة العربية عن التعبير عن القضايا و التحديات الحقيقية التي تواجه فعلا العربي في وجودهم، كما أن تورم المدن العربية على نحو عشوائي و كامتداد للضواحي الصفيح، أفرز حالة من القنوط و العياء و الفتور في الانتماء إلى الحياة المدنية العربية الحديثة. فمعروف أن المدن العربية [8]لا توحي كثيرا لأدباء العالم بالقدوم إليها و الكتابة من وحي أجوائها و عبيرها، بل على العكس تماما نجد أن المبدع و المفكر و العالم العربي هو الذي يرحل إلى المدن الأوروبية و الأمريكية من أجل استكمال الهوية الناقصة لديه، على ما شهدته مدن باريس، لندن، روما، برلين، أمستردام، واشنطن، نيويورك، أوطاوا،ناهيك عن عشرات المدن الأخرى الهادئة و المريحة.

وجود العرب معلق على وجود لغتهم. وسياق العولمة و العصر الفائق يتيح أكثر من فرصة للاستثمار في اللغة ، و من ثم امتلاك و استكمال الهوية العربية. و نأخذ على سبيل المثال مدن العربية السعودية، التي يتدفق إليها الملايين من المسلمين في العالم بمناسبة مواسم الحج والعمرة، يرددون أدعية، يؤدون مناسك و شعائر دينية بلغة عربية

---

[7] محمد المبارك، فقه اللغة، مطبعة جامعة دمشق، 1960، ص.4.

[8] في زمن سابق قريب كانت المدن العربية تتمتع بفضاء يستقطب الاستقرار فيها و الكتابة من وحي أجوائها، و مناخها على ما كانت عليه مدن المغرب و تونس و الجزائر، بيروت، القاهرة و خاصة الإسكندرية التي عاش و كتب فيها ألمع و أكبر شعراء القرن العشرين. حول مدينة الإسكندرية و كبار شعراء العالم، يمكن العودة إلى كتاب: أحمد عبد المعطي حجازي، بابل الشعر، كتاب دبي الثقافية، عدد 44، يناير 2011. في تقديمه للكتاب يقول الشاعر عبد المعطي حجازي:" في حديثي عن كفافيس، و أونجاريتي، و مارينيتي حنين للإسكندرية الهللينية و الكوزموبوليتانية التي عرفتها و أحببتها في صباي الباكر في الخمسينيات القرن الماضي و ستينياته، حين كانت الإسكندرية لا تزال مدينة مختلطة حافلة بالوجوه و الألوان و اللغات و الألحان و المطاعم و الفنادق و الحانات، إسكندرية كفافيس، و أونجاريتي، و مارينيتي، و جورج شحادة، و خليل مطران، و إيليا أو ماضي هي بابل الشعر". ص.16

و لغات أخرى مختلفة تساعد كثيرا على التواصل و إغناء اللغة العربية بتوفير أجواء موحية لمناطقها التاريخية و إعادة تصميم بيئات و بنايات من الوحي العمران الإسلامي الذي لا يتوقف عن الإبداع الفني. و اليوم هناك، إمكانية الاستثمار في اللغة العربية في بلدان الخليج العربي، التي شهدت بعض مدنها طفرة نوعية هائلة من التقدم و النماء مثل دبي، أبو ظبي، الرياض، الدوحة.. التي تستقطب المال و الأعمال من مختلف القارات في العالم، الأمر الذي يتيح تداول اللغة العربية من قبل السوّاح، رجال الأعمال و التجارة و المتعاملين الاقتصاديين، و الشركات الدولية و في المؤتمرات السياسية و الاقتصادية و الفكرية التي تقام فيها بشكل مستمر و التي يجب أن تستمر إلى حد أن تصير ثقافة.

اللغة العربية و مسألة الحداثة

تُطْرَح اليوم اللغة العربية كمسألة أساسية، و تمثل إشكالية انتقال العرب و المسلمين إلى مصاف الأمم المتقدمة، أي العرب و صلتهم بالحداثة في كل تجلياتها و أبعادها بحيث يَتَمَثَّلُون العصر و ينخرطون فيه بالكشف و العطاء و الإبداع. فاللغة العربية ليست وسيلة تعبير فقط عن مستوى عامي، شعبي و محلي بقدر ما صارت ترنو إلى التعبير عن ما هو أكاديمي و عالمي و القدرة على إدارة و تسيير المؤسسات الحكومية و المجتمعات المدنية الوطنية منها و الدولية. ناهيك أن اللغة العربية أضحت موضوعا للبحث و الدراسة و المعالجة و التحليل بالقدر الذي أصبحت فيه مسألة كاملة للعبور إلى الحداثة ليس كلغة تخص العرب، بل أيضا لغة عربية للعالمين أيضا بسبب سياق العولمة الذي كثف العلاقات البينية بين الشعوب و الأمم و تداعيات ذلك على صعيد النزوح و الهجرات البشرية المتلاحقة التي لا تعرف التوقف، و غيَّرت الكثير من المعطيات الديموغرافية و الثقافية[9]. و من هنا، المطلوب هو التعامل مع اللغة العربية برسم تعميمها على سائر الشعوب و الأمم لأن العالم صار قرية واحدة على رأي ماك لوهان.

[9] نذكر على سبيل المثال ظاهرة التنوع الديموغرافي في بلدان الخليج العربي الذي غيّرت من ملامح مجتمعاتها و هي مرشحة إلى مزيد من التحوّل الثقافي. ففي بعض من بلدان الخليج العربية عدد الوافدين / المقيمين يفوق السكان الأصليين أنفسهم، و في هذه الحالة تصبح مسألة تعلم و امتلاك اللغة العربية أكثر من مصيرية ليس ضدا على لغات المقيمين، بل في صلتها بهم كأفضل إمكان لإثراء اللغات و استخدمها في مستوياتها المختلفة. فقد شهد العصر الحديث حالات من الهجرات الكبرى، على ما حدث في الولايات المتحدة الأمريكية نهاية القرن التاسع عشر و ما بعده، ثم ما رافقه من ازدهار و تقدم على كافة الأصعدة و في مختلف المجالات و خاصة إثراء اللغة الإنجليزية التي أضحت بقوة التقدم و التطور لغة أمريكية. و نعتقد أنه بإمكان اللغة العربية أن تستفيد من وجود المقيمين الذين قد يطيل بهم المقام في بلدان الخليج العربي و ينصهرون

العلاقات البينية و الاعتماد المتبادل، أضحت في العصر الفائق ظاهرة لا يمكن الافتئات عليها و لا التغاضي عنها، لا من قبل العرب و لا من طرف غيرهم، لأن الجميع صار يرنو و يتطلع إلى احتلال الموقع العام في الحضارة الإنسانية الراهنة و في المستقبل أيضا. و من هنا، فاللغة العربية، لا تطرح فقط من حيث تَعْلِيمِها و تَعَلّمها، بل توظيفها في الأغراض الحديثة و الجديدة التي لم تعهدها حضارة العرب في عصرها الكلاسيكي و لا في عصر الانحطاط قبل مجيء الاستعمار الأوروبي. و هكذا، فالمسألة المطروحة على اللغة العربية ليست كلسان و وسيلة تعبير بل كقضية حضارية كبرى جوهرها التقدم و امتلاك ناصية التاريخ الفاعل الذي يفصح عن المعنى و السلطة و الحقيقة.

قامت حضارة العرب بداية من عصر التدوين الذي شمل تقعيد و ضبط قواعد و أسس اللغة العربية من حيث البيان و البلاغة، النحو و الصرف و أساليب الكتابة و الترجمة عن الحضارات الأخرى، فضلا على كيفية التعبير و استخدامها في علوم جديدة قيد التشكل و التأسيس[10]. و قد كان الغرض الأساس الذي استقطب العملية الحضارية برُمَّتها هو تَدَبُّر معاني القرآن الكريم عندما صار مدوَّنا بين دفتي كتاب ينطوي على آيات محكمات و أخرى متشابهات. و انفتحت العملية على مقابلة آيات الله في القرآن الكريم بآيات الله في الكون العظيم. و هكذا، فقد كانت القضية التي سخرت لها إشكالية البحث اللغوي هي صيانة القرآن الكريم و الحفاظ عليه بالإفصاح عن كافة مستوياته الدلالية و اللفظية لاستخلاص و استنباط الأحكام الفقهية و التأويلات الكلامية و المعرفية. فاللغة العربية لم تطلب لذاتها، و لكن لمهام علمية و أغراض و انجازات حضارية، فكانت وسيلة وموضوعا في ذات الوقت، و من رحم هذا التفاعل شيّدت الحضارة العربية.

و تواصلا مع نفس هذا السَّمْت و المنهج في التعامل مع اللغة العربية، فان المطلوب اليوم، وهذا ما تم في جزء منه، إعادة طرح مسألة اللغة العربية ليس كوسيلة تخاطب في عصر انتشار وسائل الإعلام، بل كموضوع يوقفنا على

في البوتقة العربية في صورتها الحديثة عندما يتسع استخدامها و التعبير بها على كافة الأصعدة و المستويات بل و في مختلف المجالات و الفضاءات.

[10] أنظر في هذا الصدد مشروع محمد عابد الجابري، نقد العقل العربي، الذي استهلّه بعصر التدوين، اللحظة التي بدأ فيها العقل العربي يعي أنه يؤسس لنفسه حضارة برسم التوجه بها إلى العالم، أي الإنخراط الواعي في صناعة الحضارة القائمة على القرآن الكريم. و يذكر الجابري أن أهم محددات العقل العربي هي البيان (اللغة العربية)، البرهان (الدليل العقلي) و العرفان(عالم التصوف و السمو الروحي). و قد درست جميعها في لحظة زمنية واحدة، القرن الثاني الهجري، لأن المحددات الثلاثة مثلت و اشترطها بناء صرح حضاري جديد للعرب. محمد عابد الجابري، **تكوين العقل العربي**، ج1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1988.

قدرات ومكامن اللغة لاستخلاص الإبريز[11] فيها ليس كتراث تاريخي بل كفقه، فلسفة، قوة إدراك للعالم الحديث و المعاصر و ما تتطلع إليه الإنسانية في المستقبل. و هكذا، فالتحدي، و هو ليس مستحيلا، الذي يواجهه العرب هو إعادة صياغة إشكالية اللغة العربية ليس في ضوء الحفاظ على القرآن الكريم فحسب ،كما حدث في عصر التدوين الأول[12]، بل برسم امتلاك العلم الجامع الذي نتقاسمه مع الإنسانية جمعاء التي تتفاعل و تتجاوب مع آيات الله في خلقه و شؤونه. فالعربية، في سياق الزمن الفائق، ليست للعرب فقط، بل هي لكل الأمم و الشعوب على اختلاف ثقافاتها و لغاتها أيضا. و إذا كنّا ندرك أن القرآن الكريم هو ذلك الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، فان نفس الاهتمام بالحقيقة، يجب أن ينصرف إليه الأمر في شأن التعامل مع اللغة العربية في صلتها بالحقائق الكونية الكبرى: الله، الإنسان، الإنسانية، عبر تقليب و إتقان اللغة على أوجهها المتنوعة و المختلفة و المتحوّلة أيضا، لأن كل ذلك يفيد الوضوح المِبين لآيات الله إن في الكتاب المنزَّل أو في الكتاب المنثور في دنيا الناس.

يرى الباحث و المفكر العربي في مجال البرمجيات، نبيل علي :" علينا أن نقر بأن علاقة اللغة العربية بالفكر الثقافي مازالت واهية إذا قيست بما يفعله الآخرون في هذا الشأن، و بمدى أهمية الدور المتعاظم الذي تلعبه اللغة في الفكر الثقافي الحديث"[13].و في نفس المعنى، يؤكد المفكر و عالم النفس العربي مصطفى صفوان، حقيقة التلازم بين

---

[11] وردت كلمة إبريز في عنوان كتاب رجل النهضة العربية الحديثة، رفاعة رافع الطهطاوي: **تخليص الإبريز في تلخيص باريز ، أو الديوان النفيس بإيوان باريس**. و الكتاب، هو تجربة الشيخ الطهطاوي مع بوادر النهضة الأولى، حيث تعرض فيها إلى امتحان الحداثة مع اللغة التي استعملها أيضا. ووواضح أن الشيخ لم يتخلّ عن أسلوب السجع الذي يحرص على التوافق بين الكلمات أكثر ما يحرص على الوضوح المبدئي. فلغرض السجع و تصنّع الحرف، كتب اسم العاصمة الفرنسية مرة " باريز" لتوافق الإبريز، و كتبها مرة أخرى باسم "باريس" لتوافق كلمة النفيس. و يبقى في جميع الأحوال أن لغة الطهطاوي، لغة مصدومة بالحضارة الغربية، فهو لا يتوفر على سابق يستند عليه، بقدر ما حاول تطويع اللغة العربية بما يستطيع هو أن يستنطقها به من حياة الفرنسية العلمية،السياسية و المدنية و مقارنتها بأحوال الحياة المصرية.

[12] إن الانجاز الحضاري الكبير الذي اضطلع به علماء عصر التدوين الأول، كما حدده المفكر العربي محمد عابد الجابري، تمثل في " عصر البناء العام الشامل للثقافة العربية و الفكر العربي. لقد كان العرب، و المسلمون عامة يمارسون الحياة، قبل "عصر التدوين" ممارسة اجتهادية، في كافة حقولها و مجالاتها، اللغوية و الفكرية و الدينية و السياسية و الإجتماعية... إذ لم يكن العقل العربي آنذاك مقيدا "بأصول" مقررة و لا مؤطرا ضمن مذاهب معينة. و يأتي عصر "التدوين" ليشهد عملية فريدة من نوعها في التاريخ، عملية وضع "الأصول" لكل مجال من مجالات الحياة الثقافية منها و السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية. فمن وضع "أصول" للتفكير الفقهي و إرساء قواعد الحكم و السياسة، إلى تنظيم الإقتصاد (الخراج...)، إلى تقنين كثير من مظاهر الحياة الإجتماعية و الثقافية. فعلا، كانت هذه "الأصول" جميعها نتيجة اجتهاد في النصوص الدينية و اللغوية، نوعا من الاجتهاد، لكنه في جميع الأحوال كان اجتهادا خاضعا قليلا أو كثيرا مباشرة أو بصورة غير مباشرة، لمعطيات ذلك العصر، السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية."، محمد عابد الجابري، وجهة نظر، نحو إعادة بناء الفكر العربي المعاصر، المرجع السابق، ص.10.

[13] نبيل علي، الثقافة العربية و عصر المعلومات : رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، عالم المعرفة، الكويت، 2001، ص, 185.

اللغة العربية و الإبداع الثقافي. فالإبداع كما يرى، لا يقتصر على الشيء المبدع، بل أيضا على فعل الإبداع نفسه[14]. و واضح من هذين الرأيين، ضرورة توكيد الصلة بين اللغة و بين مناحي الحياة المختلفة كأفضل سبيل إلى امتلاك العالم في تفاصيله و مستوياته. إن صلة اللغة بالفكر الثقافي لا تتوقف إطلاقا و إلا عنى ذلك ضمور اللغة و انكماشها ثمّ التلاشي الحضاري. فاللغة العربية، كما أشرنا، لغة كامنة وواضحة تنطوي على ما هو معروف و ظاهر، فضلا على ما هو مجازي و متواري خلف تاريخية و إيحائية اللفظ. وفي هذا الجانب، لا تختلف اللغة العربية عن سائر اللغات الحية في العالم من حيث امتلاك القدرة على التوليد و الاشتقاق و إضفاء المعاني على الوقائع و الكلمات و الأحداث و كل الأشياء التي يمكن و لا يمكن تصورها و "تنسيق الأسماء الجديدة للمخترعات"... فضلا على قدرتها العجيبة على الاحتفال بالذات و بالآخر و على ترجمة خوالج و مكامن النفس العميقة و الإعراب عن تطلعات الشعوب و المجتمعات و مقاومة الخطاب الكولونيالي، ناهيك عن بلورة مفاهيم سياسية، فلسفية، أخلاقية و اقتصادية.. التي تقتضيها الحياة الإنسانية الرّاهنة. و الشرط اللازب إلى كل ذلك هو وصول اللغة إلى المجال السياسي العام لكي تتحرك في سياق الوضع الحقيقي الذي يوجد عليه العرب و المسلمون. فقط ولوج اللغة العربية إلى المجال العام هو الذي يساعد على الانفتاح و الازدهار و التحفيز الإيجابي لإدراك معاني الحياة في كافة مجالاتها المتعلقة بالإنسان والمجتمع و الله و الكون.

ثمة حقيقة يجب أن لا نفتئت عليها، و هي أن اللغة العربية لغة الإنسان الكامل، الذي لا يكف عن التطلع إلى ما هو أفضل، تساعده في ذلك المعاني الجديدة التي توحي بها اللغة في صلتها بالواقع. و الإنسان الكامل هو هذا الكائن الذي يتطور عبر تطور اللغة في صلتها بالدنيا و الآخرة، و يستطيع من ثم أن يحدد مصيره و يدرك غايته من وجوده في الحياة. فقد خاض الإنسان العربي تجربة الرقي مع اللغة العربية و كذلك تجربة الانحطاط و التخلف، و هو اليوم يحاول إن يستعيد مجددا اللغة العربية في سياق فائق التطور و النماء، مما يدلل على تاريخية اللغة العربية عندما تتعلق بالإنسان، و أنه يستطيع أن يعيد تعامله مع اللغة بشكل تتلاءم مع مقتضيات العصر الراهن في كل تجلياته و مظاهره. و كون أن اللغة العربية تعبر عن الإنسان الكامل يعني أنها تمتلك القدرة على التعبير عن كل أبعاد

---

[14] مصطفى صفوان مفكر مصري ، تلميذ و زميل العالم و المحلل النفسي الفرنسي المعروف جاك لاكان Jacques Lacan ، في كتابه " لماذا العالم العربي ليس حراً"، يحاول الإجابة على ذلك بانحسار المجال الذي تتحرك فيه اللغة العربية و من لعقل ثم الفكر العربي لكي يفكر في جميع قضايا العصر الحديث و المعاصر.اللغة لا تمارس سلطتها بالكامل و الفكر أوا لا يَشْتَغِل بكل قدراته . الضامن الأساسي لإمكانية الارتقاء باللغة العربية إلى مرتبة التاريخ الإنساني هي الحرية بدلالتها الحقيقية، ومعانيها القوية.أنظر، Moustapha Safouan, pourquoi le monde arabe n’est pas libre, Denoël, Paris,2008, p.89-102,

الإنسان الجوانية منها و البرانية بصيغة الفرد[15] أو بصيغة الجمع. ففي مجال الشعر مثلا، كانت " قصيدة النثر" هي الصيغة الإبداعية للغة العربية الحديثة عندما أرادت أن تعبر عن وجدان الشاعر العربي و أحاسيسه حيال دنيا الناس. يقول الشاعر الكبير "أدونيس"، و هو أحد رموز الشعر الحر في هذا الصدد، أي في صدد قوة اللغة العربية في تفجير كينونتها لتستوعب المعاني الجديدة و لتمتلكها، و عدم انفصام عراها مع لحظة الإبداع و الخلق و الابتكار:" إن شعرية اللغة العربية لا تستنفدها الأوزان، على الرغم من كمالها و غناها فنيا، و أن هذه اللغة تزخر بإمكانات تعبيرية و طرائق و تراكيب، يتعذر أن نضع لها حدّا نهائيا تقف عنده فهي لغة مفتوحة على اللانهاية. و ابتكرت قصيدة النثر أيضا طرقا و أشكالا أخرى للتعبير الشعري، تواكب الطرق و الأشكال القائمة على الوزن، و تؤاخيها، بما يغني اللغة الشعرية العربية و ينوّعها و يعددها. و في هذا إثراء للمخيلة و للذائقة أيضا. فقصيدة النثر، كما تبنيتها، لم تكن ضدّا لقصيدة الوزن، و لم تكن إلغاء أو نفيا لها، و إنما كانت تجريبا جديدا في حقل اللغة، إلى جانب الوزن... و المبدأ الآخر التي قامت عليه "قصيدة النثر" هو الرغبة في جعل اللغة العربية مفتوحة على جميع التجارب الشعرية في العالم، وفي وضعها إبداعيا، على خريطة الإبداع الكوني، بخصوصيتها، لكن في الوقت نفسه، بانفتاحها و لا نهائيتها: تفاعلاً، و مقابسةً، و حواراً"[16].

أكد العلم الحديث حقيقة التلازم بين اللغة و الشخصية، و أن أي اضطراب أو خلل يصيب الشخص ينعكس على لغته، ثم لا يلبث أن يعبر عن سلوك عقلي فاسد و ضعف في شخصية الإنسان. و لم يعد الأمر قاصرا على الفرد بل تعداه إلى الجماعة أو الأمة ذاتها، عندما لا تحسن التعامل مع اللغة في كل أبعادها و مستوياتها أو يربكها الحدث المدلهم فتخفق في أخذ الكلمة أو عن التعبير عن الموقف[17]. فأساس التخلف هو في ضعف استخدام اللغة، و العكس صحيح أيضا على اعتبار أن هناك علاقة جدلية و تأثير متبادل بين العقل و اللغة، على ما كان يرى

---

[15] مثال التعبير بصيغة الفرد: إن الثقافة العرفانية و تجارب المتصوفة تعد من التعبير الفردي ذي الصلة بوجدان و فكر العارف و المتصوف. و في هذا الباب دشّن علماء التصوف محيطا زاخرا من العلم الإيحائي و الإشاري. أما التعبير بصيغة الجمع : النزعة القومية العربية الحديثة عبّرت عن تيار عروبي من منزع أن اللغة العربية هي قوام وجود العرب و هويتهم الأساسية، و أن العربي يعرف بلغته و اللغة العربية هي لغة العرب بالذات.

[16] حوار مع أدونيس، مجلة آداب، بيروت، أكتوبر 2001.

[17] نحيل في هذا المقام إلى كتاب المفكر العربي جورج طرابيشي، المثقفون العرب و التراث، التحليل النفسي لعصاب جماعي، الذي يضع فيه الخطاب العربي المعاصر، و على وجه التحديد خطاب ما بعد نكسة 1967، على مشرحة التحليل النفسي ليقف على أهم الرَّضات و الأمراض التي أصابت العقل العربي في صلته باللغة التي يصوغ بها مفردات خطابه. جورج طرابيشي، المثقفون العرب و التراث: التحليل النفسي لعصاب جماعي، رياض الرّيس للكتب و النشر، لندن، 1991.

الفيلسوف الفرنسي باسكال: "اللغة تَصْنَع الفكر الذي يَصْنَع بدوره اللغة". كل العلوم الإنسانية و الاجتماعية محورها الإنسان في صلته باللغة التي يستخدمها في الدوائر الذي ينتمي إليها، في سيرورة لا تني تتقدم و تتعاظم، تتطلب الحرص الشديد على عدم التخلف عن الركب التاريخي و الحضاري.

التخلّف الذي كان يعاني منه العالم العربي زمن الاستعمار الأوروبي هو تخلف في إدراك المعاني الجديدة للفكر السياسي و العلم النظري و التطبيقي[18]. لم تكن وسيلة التعبير عند الإنسان العربي في هذه الفترة تتوفر على المفاهيم الحديثة و لم تكن تدرك الأفكار في معانيها الأصلية و الأصيلة، أي وجه التواصل فيها مع حضارة الغرب و وجه صلتها مع الفكر الإنساني العام قبل أن تحتكره الحضارة الغربية الحديثة. و هكذا، كان على العرب أن يمتلكوا اللغات الأجنبية- حسب الدولة المحتلة- و يقفوا على معاني الحرية، السيادة، الاستقلال، الدستور، حقوق الإنسان، الديمقراطية، الدولة الحديثة... من أجل أن يتحرروا من الاستعمار، ثم السعي إلى محاولة الخروج من التخلف. و لا زال العرب إلى اليوم يحاولون استيعاب معاني هذه المفاهيم في لغتهم العربية بحيث تعبر عن شخصيتهم بتلقائية و مسئولية.

لا زالت اللغة العربية تحتاج، من جملة أشياء أخرى، إلى تخليصها من الإرث الاستعماري، و استعادة، من ثم الشخصية العربية ذات الاستقلال التاريخي[19] الذي يعبر عن الكينونة العربية القادرة على تقديم الإضافة النوعية إلى الحضارة الإنسانية و تَحَمُّل مصير العالم و مستقبله. لا بل، أن تصفية اللغة العربية مما هو إيديولوجي و رسمي، يعد حافزا آخرا لامتلاك القدرة على التعبير و الكلام الواضح الذي يرتب المسؤوليات. فاللحظة الراهنة، هي لحظة ما بعد الكولونيالية، التي تقارب موضوع أنظمة الحكم العربي في سياق تاريخ الاستعمار وما بعده، على أساس أن إخفاقات أنظمة الحكم العربي بعد الاستقلال، تدفع إلى إعادة النظر في مسؤولية الاستعمار الكاملة لما حدث للعرب من تراجع و تخلف و إخفاق.

---

[18] نأخذ على سبيل المثال الإستعمار الفرنسي للجزائر، على اعتبار أن الجزائر هي البلد الذي تعرض إلى احتلال استيطاني مباشر، و عاملتها فرنسا كإقليم تابع لدولتها. مع مطلع القرن العشرين كان الفعل الاستعماري يتبعه رد فعل مناهض للإستعمار، التمسته الحركة الوطنية الجزائرية المتوثبة إلى استعادة السيادة و المعاملة بنفس قيم العصر و روحه. و كانت كل التشكيلات الوطنية التي تكافح ضد الاحتلال تستخدم اللغة الفرنسية، لغة الإدارة و الحكم ، من منطلق الفهم السليم و الصحيح للمعاني التي ينطوي عليه القاموس السياسي الحديث. وعليه، فقد تمكنت الحركة الوطنية الجزائرية أن تنتزع الاستقلال في مدلوله الصحيح، لكن بقي عليها أن تستوعبه، بعد الاستقلال باللغة العربية في برامج و مشاريع تستعيد بها الشخصية الوطنية التي ضاعت مع الإستعمار.

[19] حول الاستقلال التاريخي للذات العربية، أنظر الفصل الخامس من كتاب محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية نقدية،ط4، مركز دارسات الوحدة العربية، بيروت، 1992.

الفجوة الحضارية بين العرب و الغرب ...أو التفاوت في المصطلح الحديث

هناك فجوة حضارية بين العرب و الغرب لا تني تتفاقم مع الوقت ، خاصة و أن وتيرة التاريخ زادت في هذا العصر الفائق التطور و النماء. وهذه الفجوة يعكسها التفاوت الكبير في استخدام المصطلح في المجال التداولي لدى العرب و لدى الغرب. إن المصطلحات الحديثة و المعاصرة تمثل أصعب التحديات التي يواجهها العرب اليوم و غدا، لأنها تحدد وجودهم ومن ثم هويتهم العربية الآيلة دائما إلى التشكل و لا تكف عن التكوين و النشوء . فالمصطلح الحديث العلمي منه و الفلسفي و السياسي يحمل معاني الحضارة الغربية في كل تجلياتها و مستويات تعبيراتها و أبعادها أيضا، على خلاف نفس المصطلح العربي لا يجاوز الكلمة المرادفة له على صعيد الترجمة دون أن يمتد إلى التوظيف الشرعي له الذي استحق أن يولد من العقل الذي يوظف اللغة العربية في أرقى وعيها بالواقع.

لا زال العقل العربي يستخدم مصطلحات اللغة العربية بشكل مفارق لها ، أي في غياب بيئتها الحديثة المناسبة لها كأفضل سبيل إلى ترقية متواصلة للغة الكلام و الحديث و الخلق و الإبداع و القدرة على الصياغة و تحليل و تركيب الخطاب الفكري و السياسي. و عليه، تظهر المفارقة و التفاوت ليس في طبيعة اللغة، بل في تقلص المجالات و الفضاءات و التخصصات التي يجب أن تتسع إليها اللغة العربية في عصر العولمة الذي ابرز مظاهره و ظواهره الديمقراطية التي صارت لها تاريخا و تجربة و مفهوما تستدعي كشرط لازب السياق و القدرة على التمثل ووسائل التحقيق و الإنجاز لمواصلة مسيرة إغناء المصطلح و الحفاظ على شرعية تداوله و ممارسته. إذا كانت الديمقراطية، تعني من جملة ما تعني استعداد دائم لتداول السلطة و الحكم، و من ثم الاحتكام إلى منطق المؤسسة العامة التي تعبر عن فكرة الدولة الحديثة، علاوة على المعاني الأخرى التي لا تكف عن التعبير عن الديمقراطية على مستوى الوجدان ، الوعي و الفكر السياسي و الممارسة الانتخابية، فإن هذا ما يفتقر إليه مصطلح الديمقراطية في المجال العربي العام الذي لا يزال يستحوذ عليه نظام الحكم.

بعد قرابة نصف قرن لا زالت التجربة الديمقراطية في العالم العربي دون المعاني التي ينطوي عليها المفهوم في المجال التداولي الغربي، الأمر الذي فوّت فرصة رائعة جدا عن مفهوم و تجربة الديمقراطية للاستفادة من التجربة العربية الحديثة من أجل إضفاء شرعية تداول المصطلح على الصعيد الدولي، الذي يحتاج إلى رصيد كافة الحضارات و الثقافات الحديثة و المعاصرة. المجتمع الدولي تعبر عنه كل دول العالم، و أفضل سبيل إلى ذلك معاشية المصطلح على مستوى الوجدان و العقل و التجربة و الممارسة. إن النظر إلى حق العرب في إدارة العالم يظهر من خلال لغتهم و قدرتها على استيعاب المفاهيم و المصطلحات و لغات العالم المتداولة اليوم في كافة أنحاء المعمورة. و هذا هو وجه

التحدي الحقيقي الذي تتعرض له الهوية العربية عندما تعجز اللغة العربية على التواصل مع بقية العالم بالانفتاح و الاستيعاب و الإبداع. فالحق في الوجود يتطلب القدرة على المساهمة و الفعل.

الغالب، أن العرب اكتفوا بترجمة مصطلح الديمقراطية و إحالته إلى القاموس العربي الحديث من دون مثال عن تجربة عربية تؤكد معنى المصطلح و توضحه. و الحال، و هذا هو وجه التحدي، أن تعطلت اللغة العربية بسبب غياب التلاقي بين الفكر و الممارسة كأفضل سبيل إلى توليد المصطلح الشرعي المناسب الذي يساعد على كتابة تاريخ التجربة العربية الحديثة في المجالات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية. فتعريب و ترجمة المصطلح لا يحقق فورا و بشكل تلقائي التجربة الديمقراطية في أبعادها و دلالتها التاريخية و السياقية. و من هنا، هذه الحالة: الفجوة الحضارية لا تزال تفضح العقل العربي في استخدامه للغة بعيدا عن مجالها التداولي و قوتها الدلالية، لحظة التحام المصطلح برحمه و تداخله معه تداخل اللحمة بالسّدى.

يكشف تحليل الخطاب السياسي العربي الحديث و المعاصر عن جوانب من التَّستر على ما تريده الأجيال العربية المتلاحقة. و يظهر هذا التحليل عناد السلطات الرسمية على إبقاء نفس مفردات النظام العربي الذي جاء إلى الحكم عن طريق الحركات التحررية، أو عبر الانقلاب، أو وراثة الحكم... الكل ساهم في اغتيال عبقرية اللغة العربية في التعامل مع الحياة الحديثة في كافة تجلياتها و مظاهرها. إن اغتيال العقل العربي، على ما يرى البعض هو اغتيال للغة بالدرجة الأولى بصرفها عن التمكن و إتقان آلية التفكير و صك و صياغة المعاني للمصطلح و إيحاءاته المختلفة. فقد جرى التعامل مع المصطلح الحديث دون حمولته التاريخية و الحضارية و خارج سياقه الأصيل و الأصلي (الغرب دائما). و نأخذ على سبيل المثال ما الذي كان يخفيه مصطلح العلمانية في الخطاب العربي بدل ما يكشفه و يوضحه بصورة يمكن التفكير به في المجال التداولي العام إن برفض "العلمانية" أو بتبنيها أو بالتحفظ على بعض تطبيقاتها أو مناقشتها في سياقها و مدلولاتها الصحيحة.

منذ ما عرف ببداية النهضة العربية الحديثة رافق مصطلح العلمانية لبسا و غموضا لحداثة اللغة العربية في تعاملها مع حقائق العالم الحديث و المعاصر. فقد ترجمت كلمة "العلمانية" عن الكلمة الفرنسية laïcité، أو عن الكلمة الإنجليزية sécularisation. و لأن اللغة العربية الحديثة صارت تكتب بدون شكل للحروف كتطوير للغة، فقد نطقها البعض العَلمانية ، أي من الدنيا و هذا العالم و تجلياته ، و نطقها البعض الآخر العِلمانية، أي من العلم science الذي يلتزم قواعد المنطق و مبادئ العقل و يفهم الظاهرة في شروطها الموضوعية دونما تأويل أو تفسير خارج عليها. ثم لم يلبث الوضع العربي أن تفاقم، بسبب هذه المرة، من التباعد بين اللغة و المجتمع عندما راحت

النخبة مثلا في افتراض ما يبرر شرعية الحديث عن المسألة العلمانية في الحياة العربية الحديثة و المعاصرة. فاللغة العربية، كما لحظنا لا تقوى على استيعاب المصطلحات الحديثة في حيويتها و تاريخيتها بسبب الحصار السياسي و الإيديولوجي، وعليه فقد غاب المعادل الموضوعي لمسألة العلمانية في الفضاء العربي و صار الحديث حولها بدون طائل أو يكاد.

المعنى الواضح الذي نريد أن ننتهي إليه من الفقرة السابقة هو أن الضعف و التخلف العربي حال دون أن تتمكن اللغة العربية من المفردات التي تعبر عن العصر و روحه، ومن ثم تتمكن من طرق مسألة العلمانية بالإضافة إليها تجارب و معاني جديدة تحد من غلوائها و شططها[20] لدى الأنظمة السياسية التي راهنت عليها من أجل التسلط و الاستبداد[21] و تأبيد المصالح الإستعمارية و الاحتكار و الاستغلال. و بتعبير أكثر وضوحا، أنه بسبب التخلف و الضعف لم يمكِّن العرب لغتهم من استيعاب المفردات الواجب تداولها كشرط إمكان مناقشة إشكالية العلمانية في الفضاء العربي و الإسلامي. و في هذه الحالة لا تعني العلمانية فصل الدين عن الدولة فحسب، بل التعامل مع الدين و مع الدولة، أو الدين و الدنيا على نفس القدر من العمق و التحليل و الدراسة. فليست الدولة في مواجهة الدين و لا الدين في مواجهة الدولة. و على خلاف ذلك وجدنا الفكر السياسي و الرسمي يعامل العلمانية كمرادف للكفر و المروق و خروج عن الدين نفسه. إن اللائكية في مدلولها الاصطلاحي الأول تعني خدمة الله من خارج الكنيسة، و أن الأرض كلها معبد لخلق الله، و أن الإنسان الذي يسعى إلى الخير و الدعوة إلى الخلاص من خارج مؤسسة الكنيسة هو اللائيكي laïque، على خلاف رجل الدين الذي يؤدي وظيفته الإلهية داخل الكنيسة المعروف بالراهب أو الكلارك clerc . ثم استمرت التجربة العلمانية و تاريخها لتواصل سيرورة الدنيوية و البحث المتواصل عن الفضاءات الجديدة و تحرير المجالات من سلطة الكنيسة.

و هكذا، فان مفارقة المصطلح العربي لمجال تداول التجربة و تاريخيتها، أفضى إلى غياب المعنى الحقيقي للمصطلح و من ثم إمكانية التعامل معه نوع من التعامل من حيث الاشتقاق و الاقتباس أو عدم الصلاحية، لكن في المطاف

---

[20] كانت فرنسا هي البلد الذي بلور مفهوم العلمانية، و استخلص من تاريخ التجربة قانون مشهور عرف بقانون الفصل بين الكنائس و الدولة الذي صدر في 9 ديسمبر 1905. و لعّل هذا ما جعل السلطة في ما بعد تعاند و تتشدد في تطبيقه إلى حد الشطط و الراديكالية، مما أفسد التوجه العام لمسيرة العالم نحو مزيد من الدنيوية و الابتعاد عن الخرافة و الأسطورة و الغيبيات و احترام المجالات و الفضاءات و التخصصات. ففي التجربة الفرنسية، التي قدمت على أنها النموذج و المثل، طغى السياسي على الديني بشكل سافر و أبعده إلى الحضيض، عانت منه حتما البلاد التي استعمرتها فرنسا.

[21] مثال ذلك نظام الحكم التركي الحديث في عهد مصطفى كمال، ومَن جاء بعده من الأنظمة العسكرية التي تواصلت مع مثال التجربة الفرنسية الراديكالية، و أضافت إليها، ليس مبدأ الفصل بين السياسي و الديني ، بل مراكمة العسكري للسياسي و مراقبة ما هو ديني .

الأخير يجب وعيه و عقله كحقيقة من حقائق العصر الحديث. فقد جرى التعامل مع كثير من المصطلحات الحديثة التي تنطوي بالضرورة على تجربة تاريخية، بلغة متخّلفة متوارثة عن عصر الانحطاط العربي، الأمر الذي أربك الفكر في النظر إلى المسائل و القضايا و الإشكاليات الحديثة بما توحي به اللغة العربية الحديثة هي أيضا. من المعروف أن أساس اللغة، أي لغة هو الاكتشاف في عالم الطبيعة و عالم النفس و في لماورائيات، بحيث يستند المصطلح إلى التجربة و يحايثها إلى النهاية، لينصهر في وجدان صاحبها و يعبِّر في نهاية المطاف عن شرعية استخدام و امتلاك المصطلح في المجال التداولي العام.

في عالم اليوم، العصر الفائق المعولم، صار بإمكان الإنسان العربي أن يلتقط الكلمة في لحظة اكتشافها و استخدامها الأول، و يمكنه من ثم التعاطي معها بقدر كبير من التلقائية و العفوية لأن المشهد العالمي لم يعد قاصرا على النص وحده بل إلى جانبه أيضا الصوت الحي و الصورة الحية. و العولمة بهذا المعنى لا تمثل تحديا بالمعنى السلبي بقدر ما تعني حافزا هاما لأنها تضعنا في صلب العالم و روحه، لا بل قد تساعد كثيرا في إسعاف و إدراك اللغة العربية ذاتها، عندما يُحْسن استغلال فضاء المعلومات و المعلوماتيا، من حيث ضبط التركيبة الجديدة لقواعد تعليم و تعلّم اللغة العربية و اللغات الأخرى، و كذلك من حيث توفير قدرات جديدة لبنية اللغة العربية من حيث phonétique (الصوتيات)، و من حيث étymologie الاشتقاق، علم الدلالة sémantique، علم السيمياء sémiotique أو العلامات ...و ما له أهمية في هذا المقام، ما جاء في التقرير العربي الثالث للتنمية الثقافية، الصادر عن مؤسسة الفكر العربي، حيث يشير إلى أن أكثر من 90% من أرقام و معطيات و بيانات و الجداول التوضيحية أخذت من مصادر غربية في موضوع يتعلّق بالعرب. أما وجه الإشكال و الصعوبة التي تواجهه اللغة العربية في العصر المعلوماتي و التقني الفائق، فيذكر التقرير هذه الفقرة :" إن اللغة العربية تتميّز بعدد من الخواص الأخرى التي تعقّد تعامل تقنية المعلومات معها. منها تعدد أوجه الصرف المتاحة، و المثال الأقرب تعدد صيغ الجمع (...) و في الوقت ذاته، المرونة التي يمكن بموجبها صياغة الجمل العربية، من تقديم و تأخير و إضمار و حذف و تورية و إبدال لمفرداتها. هذا بالإضافة إلى الطول المفرط للجملة التي اعتاد عليها كتّابها، و تعدد اللهجات و الازدواجية اللغوية للفصحى و العامية و جنوح الكثيرين لاستخدام مفردات و تراكيب مستقاة من اللغتين الإنكليزية و الفرنسية من دون سبكيها و تطويعها وفقا لقواعد محددة. و من الممارسات التي تطرح صعوبات جمّة في التعامل مع اللغة العربية، سواء أكان هذا التعامل آليا أو قام به مترجمون من البشر، الفوضى في التشكيل و استخدام

الفواصل و التنقيط و غيرها من الشارات التي تنظم معاني النصوص و غاياتها، مما يتطلب وضع نظام قياسي متكامل يتم تبنِّيه من قبل كل الوسائط التي تستخدم هذه اللغة"[22].

امتلاك أكثر من لغة مع لغة الأم هي ديدن الإنسان العربي المعاصر، الذي صار يقرأ و يكتب باللغات العالمية، و يقلص حالة الاستيعاب الإمبريالي التي تفرضه الثقافات و السياسات الأجنبية على ما فعله الاستعمار الغربي في القرن التاسع عشر و العشرين. و من هذه الناحية، صرنا اليوم نشهد تقلص ثنائية الغرب و العرب و أنها آيلة إلى زوال لأن العصر المعولم يقتضي في جوهره و تطلعاته إلى التعددية الثقافية و يفتح مجالا إنسانيا مشتركا لجميع الشعوب و الأمم لكي تندرج في التفكير في قضايا الإنسان و الإنسانية و مصيرهما. و لعلّ هذه هي واحدة من نتائج التعليم العام في البلدان العربية التي تُدَرِّس و تُعَلِّم باللغة العربية و اللغات الأجنبية، و صار المتَخَرّج العربي من الجامعات العربية يستطيع أن يشتغل في المؤسسات العربية كما الأجنبية أيضا. و ما بقي، هو إرادة سياسية، لتخليص اللغة العربية من الوهدة التي تعيش فيها منذ لحظة الاستقلال العربي، بمساعدتها على الانفتاح على المجالات و القضايا الحديثة و المعاصرة.

بدلا من الخاتمة ...

تكمن قيمة و أهمية اللغة العربية و كذا سائر اللغات الحية في العالم، في أنها وسيلة اتصال و تعبير و إبداع، و من ثم فهي لغة الحضارة و الثقافة و الفكر. غير أن قيمتها الحقيقية تتمثل في قدرتها على التواصل مع النوازل و المستجدات الجديدة التي تدرك بها العصر و روحه. فاللغة في هذه الحال، هي لغة الحياة في كل أبعادها و تعبيراتها و مستوياتها التي تعكس أسلوب ونمط عيش و نوعية تفكير و تعامل المجتمع مع نفسه و مع الآخرين، أي هوية المجتمع و الأمة. وثمة حقيقة أخرى يجب أن ترافق اللغة و هي أن تخضع اللغة ذاتها إلى المعاينة و إعادة الفحص الشامل كمنظومة قائمة بذاتها من حيث بنيتها و طرق و أساليب تدريها و الآليات البيداغوجية التي يجب أن تشملها لدى كل جيل من الأجيال التي تتعامل معها و تتوسطها كلغة إبداع و خلق و تواصل.

تعاني اللغة العربية، لا شك، قياسا باللغات العالمية الحية من فجوة هائلة تفضح فعلا هوية الإنسان العربي و مجتمعه، خاصة على صعيد تنسيق الأسماء الجديدة للمخترعات و الاكتشافات سواء أكان ذلك على مستوى العلوم النظرية أو التطبيقية أو علوم الإنسان و المجتمع. و عليه، فالتحدي الكبير الذي تعاني منه اللغة العربية في صلتها

[22] التقرير العربي الثالث للتنمية الثقافية، مؤسسة الفكر العربي، بيروت، 2010، ص. 128-129.

بالإنسان العربي و مجتمعه هو في ضرورة رأب الشرخ الحاصل في الوجود الفعلي للعرب في هذا العصر المعولم و الفائق التطور. يجب أن ننتمي إلى العصر في كل مستوياته و أبعاده عبر لغة عربية بما تملك من قدرة على التعبير و الإيحاء و في صلتها بكافة اللغات الحية السائدة اليوم، و من حيث أن اللغة العربية لغة عالمة و لغة شعبية أيضا لأن الهوية هي كل ما تزدهر به شخصية الإنسان العربي و ما يمثله مجتمعه و أمته، في صلته بالمجتمعات و الأمم الأخرى. و بتعبير موجز و واضح، إن التحدي الذي تواجهه اللغة العربية يظهر على وجه الخصوص في مدى قدرة العقل العربي الراهن على إعادة استثمار مكامن و مكانز اللغة العربية و ما تنطوي عليه من أجل امتلاك التراث العربي و الإسلامي خاصة منه الهوامش الضائعة و المواطن التي لم يجر فيها التفكير و الاجتهاد، و تأصيل الحداثة عبر الإبداع و الصناعة و الخلق و الاكتشاف. إن اللغة العربية اليوم و غدا مطلوبة كوسيلة و كغاية في حد ذاتها، أي قدرتها على الإيصال و التواصل و قدرتها على تعقل ذاتها بإعادة تشكيلها و البحث في مكوناتها البنيوية لتمكينها من الوظائف الحديثة.

كان على اللغة العربية أن تواجه الحداثة بالعقل العربي الحديث و المعاصر، و ليس بتمجيد الحضارة العربية في عصرها الكلاسيكي. فلحظة ازدهار و تطور الحضارة العربية هو في الأساس و الجوهر لحظة ازدهار اللغة العربية ذاتها من حيث الوضوح و استيعاب المعاني المتناثرة في الأشياء و الكلمات و الانفتاح على العالم الخارجي كامتداد لخاصية القرآن الكريم الذي يوضح المعاني و الدلالات و العبر إلى الناس كافة، في الأمصار و الأزمان المتعاقبة على الإنسانية. و الازدهار و التطور الذي يرافق اللغة العربية معناه العثور على أساليب تبليغ و تواصل و إبداع جديدة كأفضل سبيل لتخطي ما هو قديم و معطل لآلية اشتغال العقل على الأشياء و الكلمات و على نفسه أيضا. اللغة العربية تنتمي إلى اللغات التي صنعت الحضارة و الثقافة و التاريخ، فهي من هذه الناحية تتمتع بحيوية لا تنفد و تتطلع دائما إلى لحظة الدخول مع عوامل إنسانية أخرى لكي تتواصل على سمت الإحياء ثم العطاء.

اللغة العربية، مثلها مثل سائر اللغات الحية في العالم المعاصر تعيش و تواجه التحديات. لا بل يمكن القول أن التحديات و الأزمات و المعضلات هي العناوين الكبرى للعصر الحديث. نوعية الزمن المعاصر تتمثل في الإيقاع السريع للتاريخ و تكثف العلاقات البينية على الصعيد السياسي و الاقتصادي والثقافي و التقارب الجغرافي أو نهاية الجغرافي على رأي المفكر الفرنسي بول فيريليو. و إطلالة سريعة على القرن العشرين "القصير"، كما يرى المؤرخ البريطاني إريك هابزبوم نجد أن جميع الأمم و الدول و الشعوب، خاصة منها الكبرى عاشت في مواجهة التحديات و المشكلات الكبرى و تجاوبت معها قدر من التجاوب في سبيل تخطيها إلى أوضاع أكثر استقرارا و نموا. و عليه،

فالأزمة أو التحدي ليست قدرا على الشعوب الحية ذات المقومات الحضارية و التاريخية الحيوية و الراسخة، بل لها من القدرة على الاستيعاب و التجاوب على رأي المؤرخ البريطاني الكبير أرنولد توينبي .

و من واقع العصر الحديث ، فان التحديات لا تنطوي إطلاقا على المعني السلبي بقدر ما تشير إلى ما ينبغي فعله و انجازه من أجل تجاوز الأوضاع الصعبة التي لا تحتمل الإرجاء أو التسويف. و بهذا المعنى، فان التحديات هي جزء من ظاهرة عامة في مسيرة الإنسانية نحو التقدم و النماء في كافة أبعاده و مستوياته. و من جملة التحديات التي تحتاج إلى مواجهة و استيعاب، اللغة العربية في صلتها بالهوية التي تطرح في سياق العولمة أو الزمن الفائق، و صارت من ثم أكثر وضوحا، أي في مدلولاتها الحقيقية و في سياقها العالمي الذي يُبَيِّن الصحيح من المزيَّف في الطرح و المعالجة. حقيقةً، الهوية العربية، مثلها مثل الهويات التي تتقاسم العالم اليوم، يمكن بحثها ليس ضدا على الهويات و خصائص المجتمعات الأخرى، بل طرحها في معرض التعرف عليها، لأن الهوية كما عرفنا، صارت تحتاج إلى الآخر من أجل تحديد الذات و الوقوف على حقيقة ما تنطوي عليها من ملامح و قسمات.